بين المسلمين والنصارى. بينما لا يبرز بالقدر الكافي صراعا آخر داخليا بين العناصر الأربعة المتكون منها المجتمع الأندلسي : وهي العنصر القوطي والعنصر العربي والعنصر البربري والعنصر الصقلبي.

ويبدو أن المادة الشعرية قد تفيدنا من هذا الجانب فهي تبرز صراعا هادئا تارة وعنيفا أخرى بين هذه العناصر. وكان هذا الصراع في نهاية الأمر هو الذي حدّد وجود دولة الاسلام بالأندلس ومستقبلها. وقبل أن نقدّم أمثلة على ذلك نقترح التقسيم التالي لمراحل حياة الدولة العربية الاسلامية بالأندلس بالنظر إلى العنصر الذي كانت بيده مقاليد الحكم.

1 ـ الفترة الأولى :

ونسميها بالفترة العربية لأن الحكم خلالها كان في جل مظاهره بيد العنصر العربي. وتمتدّ هذه الفترة على أربعة قرون من القرن 7/1 إلى القرن 11/5، وتبتدىء بحدث عظيم الأهمية ويتمثل في فتح العرب لشمال افريقيا في وسط القرن 7/1. وتأسست القيروان سنة 670/50 على يد الفاتح الكبير عقبة بن نافع. أما الأندلس فقد وصلها الفتح الاسلامي في أواخر القرن 7/1. وكان ذلك في ظل الخلافة الأمويّة بدمشق (660/40 ـ 710/92) وحكم الأندلس بعد فتحها سنة 710/92 إلى سنة 755/138 اثنان وعشرون واليا أولهم موسى بن نصير الذي اكتمل فتح الجزيرة على يديه سنة 712/94 وأشهرهم عبد الرحمان بن عبد الله الغافقي الذي وصل الجيش العربي الفاتح معه إلى أقصى نقطة في أروبا. فقد خسر هذا القائد معركة بلاط الشهداء (بواتيه) ضد شارل مارتل وقتل سنة 732/114. وآخر الولاة هو يوسف بن عبد الرحمان الفهري الذي افتكّ منه السلطة الأمير عبد الرحمان بن معاوية (الملقّب بالدّاخل، والأول، وصقر قريش) سنة 755/138.

لقد استطاع هذا الأمير الشاب بعد سقوط خلافتهم بدمشق على يد العبّاسيين أن يفرّ إلى المغرب ويؤسس إمارة أموية بالأندلس عاصمتها إشبيلية لمدّة محدودة ثم قرطبة بصفة نهائية.

قامت هذه الامارة سنة 755/138 وحكمها ثمانية أمراء : أولهم مؤسس الدولة عبد الرحمان الأول وآخرهم عبد الرحمان الأول وآخرهم عبد الرحمان الثالث. وقد واجه هذا الأمير الشاب ـ بعد أن ورث الحكم عن جده الأمير عبد الله ـ خطرا داخليا وآخر خارجيا :

أما الخطر الداخلي فتمثّل في فتنة شعواء عمّت أرجاء البلاد، وكان للمستعمرين الأندلسيين من النصارى دورهم في تأجيج نارها والعمل على استمرارها وانتشارها. واستطاع بعزمه الثابت أن يعيد توحيد البلاد ويقضي على هذه الفتنة وعلى زعيمها ابن حفصون. أما الخطر الخارجي فتمثل في بروز عنصر جديد على الركح السياسي بالعدوة الافريقية وخاصة افريقيّة (المغرب الأدنى أي تونس). هذا العنصر الجديد هو العنصر الشيعي. فقد استطاع العبيديّون ـ نسبة إلى مؤسس الدولة عبيد الله المهدي ـ القضاء على

الدولة الأغلبية سنة 909/297 و الحلول محلّها، وإعلان خلافة شيعية بالمغرب تناوىء الخلافة العبّاسية السنّية بالمشرق. وهكذا وجد ـ ولأول مرة في تاريخ الاسلام ـ خلافتان في نفس الوقت : إحداهما بالمشرق وعاصمتها بغداد والثانية بالمغرب وعاصمتها القيروان.

ولم يكن طمع العبيديين الشيعة في المشرق ورغبتهم في الاستيلاء على عتباته المقدّسة ليلهيهم عن محاولة تركيز نفوذهم في المغرب على أسس ثابتة وصحيحة. فهم كانوا يطمحون إلى توحيد العالم الاسلامي كلّه والعربي منه خاصة تحت لواء ايديولوجية واحدة هي الايديولوجية الشيعية. ولا شك أن الامارة الأموية السنية في قرطبة تمثّل في نظرهم عائقا خطرا لهم في محاولة تحقيق هذا الحلم الكبير.

ومن جهة أخرى تبيّن لعبد الرحمان الثالث بقرطبة أن خطر الشيعة ليس موجّها فقط نحو المشرق العربي، بل هو موجّـه وفي مرحلة أولى ومتأكدة نحو المغرب الأقصى والأندلس. فعمل جاهدا ـ بعد توحيد البلاد والقضاء على الفتنة الداخلية ـ على تركيز نفوذه بالمغرب الأقصى باعتباره امتدادا حيويا لنفوذه بالأندلس. وانقسم سكان المغرب من البربر إلى مؤيد للعبيديين، وهم قبائل صنهاجة ومؤيد للأمويين وهم قبائل زناتة.

ولم يكتف عبد الرحمان الثالث بذلك بل أعلن انقلاب الامارة الأموية بقرطبة إلى خلافة سنة 929/317. وتلقّب بلقب خلافي هو الناصر حتى يقف موقف الندّ للندّ للخليفة المهدي بالقيروان، خاصة بعد أن تحول الصراع المذهبي الايديولوجي بين قرطبة والقيروان إلى صراع عسكري على سواحل البلدين. وهكذا يصبح في العالم الاسلامي لأول مرّة سنة 929/317 ثلاثة خلفاء يدّعي كلّ واحد منهم أنه الخليفة الشرعي.

وستعيش الأندلس في ظلّ الخلافة الأموية الجديدة وخاصة في عهدي الناصر وابنه الحكم المستنصر ثمّ مع الحاجب القوي المنصور بن أبي عامر عصرها الذهبي طيلة القرن 10/4.

ولئن استطاع هذا الحاجب بحنكته أن يوفّق بين الانفراد بالحكم والابقاء على منصب الخلافة في شخص الخليفة الضعيف هشام المؤيد، فإن ابنه الثاني الملقّب احتقارا بشنجول (تصغير شانجة) أراد أن يجمع في شخصه الخلافة والحجابة، فكان ذلك السبب الرئيسي في اندلاع الفتنة الكبرى بقرطبة. وستعيش الأندلس حربا أهلية طاحنة حوالي ربع قرن من الزمن انقسم فيها المجتمع الأندلسي إلى فريقين متناحرين هما الحزب الأندلسي والحزب البربري. وقد انتهت هذه الفتنة بسقوط الخلافة الأموية سنة 1030/422. وتفكّكت وحدة البلاد، وتمكّن النصارى ولأول مرة منذ عهود طويلة من الاستحواذ على مناطق من أرض الاسلام في الشمال مقابل ما كانوا يسدونه من خدمات عسكرية لهذا الفريق أو ذاك.

ولا شك أن حرمان البربر من السلطة كان السبب الأوضح الأعمق في اندلاع الفتنة وسقوط الخلافة رمز الحكم العربي بالأندلس، وبسقوطها فسحت المجال لهذا العنصر وللعنصر الصقلبي من الاستقلال بالسلطة العليا ولو كان ذلك في مناطق محدودة وصغيرة من بلاد الأندلس.

وبهذا التحوّل في أعلى هرم السلطة دخلت البلاد بداية من القرن 11/5 في عهد ما أصبح معروفا ومشهورا بعهد الطوائف : لقد قامت على أنقاض الخلافة الأموية مجموعة من الدول اتخذت من المدن الكبرى الأندلسية عواصم لها. واستقلّ بالحكم بها قضاة سابقون أو ولاة جهويون أو قادة عسكريون في عهد الدولة الأموية المنهارة.

وهكذا ستعيش الأندلس فترة تتخاصم فيها عناصر متعددة على الحكم : وهي العنصر العربي ـ وكان الأقوى ـ والعنصر البربري والعنصر الصقلبي. ولم يكن من الممكن أن تتحدد هذه العناصر لمواجهة العدوّ المشترك وهو النصارى، نظرا إلى أن العنصرين الثاني والثالث أصبحا رافضين رفضا مطلقا أن يلعبا الدور الثاني في هرم السلطة بالأندلس، ولم يعد العنصر الأول قادرا لاخضاع هذين العنصرين لنفوذه وسيطرته بالقوّة. وبذلك يمكن لنا أن نفترض أن عهد ملوك الطوائف هو العهد الذي تهيأت فيه الأندلس للخروج من حكم العنصر العربي إلى حكم عنصر آخر هو العنصر البربري.

2 ـ الفترة الثانية :

ونسميها بالفترة البربرية لأن الحكم خلالها كان بيد العنص البربري المرابطي أولا ثم البربري الموحّدي ثانيا.

لقد آلت السياسة الانتحارية التي اتبعها ملوك الطوائف إلى تفاقم الخطر النصراني في الشمال، خاصة بعد سقوط طليطلة عاصمة الثغر الأوسط بيد ألفونس السّادس ملك قشتالة 1085/478. وانتبه هؤلاء الملوك من غفوتهم ولهوهم وتناحرهم فيما بينهم بعد أن بدا جليا واضحا ولجميعهم أن هذا الملك القشتالي مقرّ العزم على القضاء عليهم واحدا واحدا. فكان أن استقرّ رأيهم وأجمعوا ـ ولو ظاهرا ـ على الاستنجاد بالمرابطين في العدوة الافريقية. ولخص المعتمد بن عباد ملك اشبيلية هذا الاتجاه السياسي لملوك الطوائف بقولته المشهورة : رعي الجمال ببوادي المغرب أفضل من رعي الخنازير في سهول قشتالة.

والمرابطون هم بربر من صنهاجة تمكّنوا بزعامة يوسف بن تاشفين من إقامة دولتهم بمراكش (1056/448 ـ 1145/540). وكانوا عندما استنجد بهم الأندلسيون يتقدون حماسا للجهاد.

قام المرابطون بإنجاد ملوك الطوائف ضد الخطر النصراني وانتصروا في معركة الزلاقة المشهورة قرب بطليوس بالبرتغال سنة 1085/478، وكسّروا شوكة ألفونسو السادس رغم ما أعده من جيوش من داخل قشتالة وخارجها.

وما أن ضعف الخطر النصراني نسبيا حتى عاد ملوك الطوائف إلى سالف عهدهم من التنافس والتناحر. وبدأ النصارى يستعدّون ليلعبوا نفس الدور الذي لعبوه قبل معركة الزلاقة. فجاء القرار المرابطي بضم الأندلس إلى دولتهم وخلع ملوك الطوائف عن عروشهم. وهكذا تنعكس الآية فقد كان المغرب الأقصى في القرن 10/4 ولاية أموية تابعة لقرطبة، فأصبحت الأندلس في القرن 11/5 ولاية مرابطية تابعة لمراكش. وتضعف الدولة المرابطية بتضافر عدة عوامل : من أهمها ظهور الدعوة الموحّديّة على يد المهدي بن تومرت وقيام الثورة ضدهم بالأندلس. فأهلها ـ أهل الأندلس ـ لئن اعتبروا المرابطي أخا منقذا لهم من العدوّ النصراني في غمرة الانتصارات، فقد أصبح في نظرهم غازيا ثقيلا عندما استقرّ ببلادهم ومسك بمقاليد الحكم بها دون بقية العناصر.

وتبقى الأندلس بعد سقوط الدولة المرابطية وقيام الدولة الموحدية ولاية تابعة للعدوة الافريقية؛ أي خاضعة لحكم العنصر البربري. ويقوم عبد المؤمن بن علي بعد أن وحّد العدوة الافريقية من سلا إلى المهدية بنجدة الأندلس ثانية من براثن التكالب النصراني عليها. وخاض الموحدون من أجل ذلك معركتين كبيرتين الأولى : معركة الأرك في سنة 1125/591 بقيادة الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور. وقد تمكّن الجيش الموحدي من سحق الجيش النصراني، وأوقف إلى حين التكالب النصراني على أرض الاسلام بالأندلس.

الثانية : معركة العقاب وانهزم فيها الموحدون بقيادة الناصر الموحّدي سنة 1212/609، وكاد المغرب والأندلس أن ينضبا بشريا بعد هذه المعركة لكثرة ما قتل من الشباب الافريقي والأندلسي.

وتضعف الدولة الموحدية سياسيا بعد هذه المعركة، وتترك شبه فراغ عسكري في الأندلس. فيغتنم النصارى الفرصة ويستولون خلال النصف الأول من القرن 13/7 على أهم القواعد الأندلسية الكبرى كبلنسية وقرطبة واشبيلية. وبذلك تسقط كل الأندلس تقريبا، ولا يبقى في يد المسلمين إلا منطقة صغيرة في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة الايبيرية.

3 ـ الفترة الثالثة :

ونسميها بالفترة الأندلسية لأن الحكم فيها أصبح بيد عناصر انصهرت منذ عهد طويل وأصبحت السمة الأندلسية هي المميزة لهم باختلاف عناصرهم :

لقد قامت في هذه المنطقة الصغيرة الحجم دولة هي دولة بني نصر أو بني الأحمر. وكان ذلك سنة 1231/629. واتخذت من مدينة غرناطة عاصمة لها. وستظل هذه الدويلة تقاوم التكالب النصراني عليها طيلة حوالي قرنين ونصف. استماتت المسلمون خلالها في الدفاع عن وجودهم. ويقلّ استغرابنا لطول مدة المقاومة إذا ما علمنا أن هذه الدولة قد ضمّت في جيشها نخبة الفروسية الأندلسية واستعانت في بعض الفترات بنخبة الفروسية الافريقية ضد الخطر النصراني.

وكانت النهاية المحتومة على يد الملكين الكاتولكيين فرديناند واليزبات بعد توحّد أراغون وقشتالة في دولة واحدة، فقد استطاع هذان الملكان الاستيلاء على غرناطة عاصمة بني الأحمر في سنة 1492/897، وبذلك انسدل الستار على دولة الاسلام بالأندلس، وسوف لن تنتهي مسرحية هذا الوجود بسقوط غرناطة بل سيبدأ فصل مشج وهو تاريخ البقية الباقية من الأمة الأندلسية وهم الذين يعرفون بالمورسكيين.

ولتدعيم هذا التقسيم يمكن أن تقدم بعض الأمثلة : لابراز هذا الصراع العنصري بشبه الجزيرة الايبيرية وأدى إلى سيطرة هذا العنصر أو ذاك على السلطة.

1) الصراع بين العرب من جهة والمستعربين والمولّدين من جهة أخرى : جرى هذا الصراع في أواخر فترة الامارة وبداية عهد الخلافة بالأندلس. وكان ابن حفصون زعيم العجم من المولّدين والمستعربين أبرز ثائر على الأمويين والحكم العربي الذي يمثلونه. « وقد دامت فتنته هو وأبناؤه اثنتين وخمسين سنة وكان يتحصّن بمدينة ببشتر... وخرجت جيوش قرطبة لاخضاعه مرات عديدة. ولم يتمكّن الأمويون من القضاء عليه إلا زمن عبد الرحمان الناصر »[3].

وجسمت المادة الشعرية هذا الصراع بقصائد فخرية أو رثائية أو هجائية من هذا الطرف أو ذاك. فقد كان لكل فريق شاعر ينوّه ببطولاته أو يحقّر من خصومه بطريقة تذكرنا بشعر النقائض الذي برز في المشرق العربي عندما احتدم الصراع السياسي بين الفرق والأحزاب :

فمن الجانب العربي نجد القائد سوّارا بن حمدون القيسي. وكان معه في حروبه ضد ابن حفصون شاعر العرب سعيد بن جودي. وقد نوّه هذا الشاعر بانتصار قومه على المولّدين في وقعة المدينة وسخر من العنصر الأعجمي ومدح زعيم العرب سوّارا. فقال (الطويل)[4] :

يَقُولُ بنُو الحمراء[5] لَوْ أَنَّ جَنَاحَنَا ... يَطِيرُ لَغَشَاكُمْ بِشُؤْبُوبِ وَابِلِ
وَضِقْتُمْ بِهِ ذَرْعًا وَجَاشَتْ نُفُوسكم ... وما مَنعتْكُمْ مَانِعَاتُ المعاقِلِ

وَلَمّا رَأَوْنَا زَاحِفِينَ إِلَيْهُمُ ... تَوَلَّوْا سِرَاعا خَوْفَ وَقْعِ المَنَاصِلِ
فصِرْنَا إليهِمْ والرِّمَاحُ تَنُوشُهمْ ... كَوقعِ الصّياصي تَحْتَ وهجِ القَسَاطِلِ
فَلَمْ يَبقَ منهمُ غيرُ عَانٍ مُصفّد ... يقودُ أسيرا مُوثقًا، فِي السلاسِلِ

لقد سَلّ سوارٌ عليكُمْ مُهنّدا ... يَجُزُّ بِهِ الهَامَاتِ جَزَّ المَفَاصِلِ
بِهِ قتلَ الله الّذِينَ تَحَزَّبوا ... عَلَيْنَا وَكَانُوا أهلَ إِفْكٍ وَبَاطِلِ
سَمَا لِبَنِي الحمراء إِذْ حَانَ حَتْفُهُمْ ... بجمع كمثل الطودِ أو عن زافِلِ
أدرْتم رحَى حَرْبٍ فَدارت عليكمُ ... بحتف قَد افناكم بِهِ الله عَاجِلِ

وقال سعيد بن جودي في قصيدة أخرى يمدح سوّار لأخذه بثأر يحيى بن صقاله أحد أمراء العرب (الخفيف)[6] :

قَدْ طَلَبْنَا بِثَأْرِنَا فَقَتَلْنَا مِنْكُمُ كُلَّ مَارِقٍ وَعَنِيدِ
قَدْ قَتَلْنَاكُمُ بِيَحْيى وَمَا أنْ كَانَ حكمُ الالَهِ بِالْمَرْدُودِ
جَاءكُمْ مَاجِدٌ يَقُودُ إِلَيْكُمْ فِتْيَةً مِنْهُمْ كَمِثْلِ الأسُودِ
هِزَبْرِيّ مُهَذَّبٌ مِنْ نِزَارٍ وَعَمِيدٌ مَا مِثْلُهُ مِنْ عَمِيدِ
يَطْلُبُ الثَّأْرَ ثَأْرَ قَوْمٍ كِرامٍ أخَذُوا بِالعُهُودِ بَعْدَ العُهُودِ
فَاسْتَبَاحَ الحَمْرَاءَ لَمْ يَبْقَ مِنْهُم غَيْرَ عَانٍ في قَيْدِهِ مَصْفُودِ
قَدْ قَتَلْنَا مِنْكمُ أُلُوفًا فَمَا يَعْدِلُ قَتْلَ الكريمِ قتلُ العَبيد

وكان للمولّدين شاعرهم المحامي عنهم وهو عبد الرحمان بن أحمد ويعرف بالعبلي نسبة إلى قرية عبلة. فمن شعره منوّها بانتصارات المولّدين ومحقّرا للعرب قوله (وافر)[7] :

قَدِ انْقَصَفَتْ قَنَاتُهُمْ وَذُلُّوا[8] وَزُعْزِعَ رُكْنُ عِزِّهِمِ الأذَلِّ
وَمَا طُلَّتْ دِمَاؤُهُمْ لَدَيْهِمْ وَهَاهُمُ عَنْدَنَا فِي البِئْرِ طَلُّ

فكان هذا البيت الثاني سبب مقتله على يد سعيد بن جودي. وقد ردّ عليه من شعراء العرب محمد بن سعيد بن مخارق ويعرف بالشاعر الأسدي (أسد بني خزيمة)[9] :

قد احتَمَلَ الأحبَّةُ واسْتَقَلُّوا لِطِيّتهم بلَيْل واحْزَألُّوا
فضَلَّ الدَّمْعُ مِنْ جَزَعٍ عَلَيْهم إذا احْتَمَلُوا يَسيحُ وَيَسْتَهِلُّ
سَأصْرِفُ هِمَّتِي عنهمُ وأسلُو بِهَجْوِي مَعْشَرا كَفَرُوا وَضَلُّوا

كما رد عليه سعيد بن جودي مناقضا له ومادحا لسوّار (وافر)[10] :

لِسَوَّارٍ عَلَى الأعْدَاءِ سَيْفٌ أبَادَ ذَوِي الْعَدَاوَةِ فَاضْمَحَلُّوا
سَقَاهُمْ كَأسَ حَتْفٍ بَعْدَ كَأسٍ بِهَا نَهَلَ الْعَبِيدُ مَعا وَعَلُّوا
وَقَدْ رُفِعَتْ لِسَوّار قنَاةٌ بِهَا خَضَعَتْ رِقَابُهُمْ وَذَلُّوا
قَتَلْتَ بِوَاحِدٍ سَوّارُ ألْفًا وَألْفُهُمُ بِوَحِدِنَا يَقِلُّ
فَأكْثَرُ قَتْلِنَا لَهُمُ حَلاَلٌ بِمَا ارْتَكَبُوهُ ظُلْمًا واسْتَحَلُّوا
وَرِثْنَا الْمَجْدَ عَنْ آبَاءِ صِدْقٍ وإرْثُكُمُ بَنِي الْعِبْدَانِ ذُلُّ
وَأخْضَعْنَا رِقَابَكُمُ فَذُلَّتْ فَلَيْسَتْ مَا حَيِيتُمْ تَسْتَقِلُّ

وقد شارك ابن عبد ربه في هذا الخصام بمدحه للأمير عبد الله عندما غزا ابن حفصون في إحدى المرّات وانتصر عليه قال (طويل)[11] :

وَرَامَ ابْـنُ حَـفْصُـونَ الـنَّجَـاةَ فلم يَسِرْ والـسَّـيْـفُ طَـالِبُــهُ فَـلَـيْــس بِـنَـــاجٍ
مَـازَالَ يَـلْـقِـحُ كُـلَّ حَـرْبٍ حَـائِــلٍ والآنَ أَنْـتَـجَـهَــا بِـشَــرٍّ نِـتَــــاجِ
رَكِـبُـوا الـفِـرَارَ بِـعُـصْـبَـةٍ قَـدْ جَـرَّبُـوا غِـبَّ الـسُّــرَى وَحَــوافِــتِ الإِدْلاَجِ
وإذا سـألـتـهـم مَـوَالِـي مَــنْ هُــمُ ؟ قَـالُــوا : مَـوَالِـيَّ كُـلِّ لَـيْــلٍ دَاجٍ

وقد يقوم الشاعر في خضمّ هذا الصراع بتقديم النصيحة للحزب الذي يمثله. فهذا الشاعر محمد بن سعيد بن مخارق الأسدي ينصح الحزب العربي بالتوحّد ليواجه الخطر المولّي : (بسيط)[12]

يَـا أَيُّـهَـا الْـعَـرَبُ الـنَّـائِـي مَـحَـلَّـتُـهُـمْ أَنْـتُـمْ نِـيَـامُ وَمَــنْ يَـشْـنَـاكُـمُ سَـهَــرُ
مَا عَـيْـشُ عَـدْنَـانِ دُون الحيّ مِنْ يَـمَـنٍ أَوْ عَـيْـشِ ذِي يَـمَـنٍ قَـدْ خَـانَـهَـا مُـضَـرُ
إنَّ الـسِّـهَـامَ إذا مـا فُـرِّقَـتْ كُـسِـرَت وإِنْ تـجَـمَّـعْـنَ تَـبْـقَـى لَـيْـسَ تَـنْـكَـسِـرُ
أَنْـتُـمْ قَـلِـيـلٌ، كَـثِـيـرٌ فِـي عِـنَـايَـتِـكُـمْ وَغَـيْـرُكُـمْ قُلُّلٌ فِـيـكُـمْ وَإِنْ كَـثُــرُوا
أَلَـيْـسَ مِـنْـكُـمْ نَـبِـيُّ الله أَكْــرَمَ مَــنْ يَــرَى الالَـهُ وَمَـنْ جَـاءَتْ بِـهِ الـسُّـوَرُ

2) الصراع بين العرب والصقالبة : يبدو أقل حِدّة من المظهر الأول وأخفت ظهورا. ويمكن أن تدرج النصوص التي جاء فيها هذا المظهر الثاني للشعوبية ضمن الأدب الرمزي، من خلال قطع شعرية وضعها أصحابها على لسان الأزهار، وتخيّلوا جدلا بينها في المفاضلة. وعادة ما ينتهي هذا الجدل باتفاق الجميع على تفوق نوع منها فتتم مبايعته. ولنا من ذلك نموذجان :

أ ـ الأول : يتمثل في رسالة لأحمد بن برد الأصغر[3] تصور فيها اجتماع نواوير خمسة هي النرجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيري النمّام. والقائم عليها (لم يذكر اسمه). وقد قام هذا القائم في الجمع خطيبا منوّها بحكمة الله في خلق عباده درجات، ثم أقرّ واعترف بالذّنب الذي وقعت فيه النواوير عندما أخذها العجب بنفسها كل مأخذ، فادعت لنفسها (الفضل بأسره والكمال بأجمعه، ولم تعلم أن بها من له مزيّة عليها ومن هو أولى بالرئاسة منها ومن يجب له عليها التحرّج ومد يد المبايعة... فهو الأكرم حسبا الأشرف زمنا والأتم خصالا... والطيب إليه كله محتاج، وهو عن جميعه مستغن، وهو أحمر والحمرة لون الدم، والدم صديق الروح وصيغة الحياة)[14]. وتقر النواوير بسرعة بذنبها وتبادر بتلافي خطئها، فتتفق على إيثار صاحب الحق وهو الورد وتفضيله والدعاء له وبذل ذات النفس في سبيله. وتتولى هذه

النواوير الحاضرة تدبيج رسالة إلى الغائب من جنسها ليدخل الجميع في هذه البيعة المباركة. وتختم الرسالة بشهادة من حضر. قال النرجس شاهدا :

(رمل)[15]

شَهِدَ النَّرْجِسُ واللهِ يَرَى صِحَّةَ النِّيَاتِ مِنْهَا والمَرَضْ
أنّ للوَرْدِ عَلَيْهِ بيعةً أكّدتْ عَقْدا فَمَا أنْ تَنْتَقِضْ

(مجزوء الكامل)[16]

شَهِدَ الْبَنَفْسَجُ أنَّهُ لِلْوَرْدِ عبدُ تَمَلُّكِ
يَسْعَى بِقَلْبِ نَاصِحٍ فِي حُبِّه مُسْتَهْلِكِ

(كامل)[17]

شَهِدَ البَهَارُ وَذُو الجَلاَلَةِ عَالِم بصَحيح مَا يُبْدِي وَمَا يُخْفِيهِ
أنَّ الإمَارَةَ فِي الأزاهِرِ كلِّهَا لِلْوَرْد لاَ يُؤْتَى لَهُ بِشَبِيهِ

وقال الخيريّ النمّام : (رمل)[18]

شَهِدَ الخَيريّ بِرًا صَادِقًا قَوْلَةً أبْعِدَ عَنْهَا الدَّرَكُ
أنّ أزهارَ الثَّرَى أجْمَعَهَا أعْبُدٌ وَالْوَرْدُ فِيهَا مَلِكٌ

وليس بخاف هدف ابن برد من هذه الرسالة التي بعث بها من بلاط مجاهد العامري بدانيةوهو مولى (أي غير عربي) إلى بلاط أبي الوليد بن جهور بقرطبة وهو عربي. فهو يومىء إلى أن صاحبه الأعجمي ينفرد بين الرؤساء (ملوك الطوائف) تفرد الورد بين النوار، وأن هذا التفرّد يجب أن يؤخذ بالتسليم الكامل.

وكان ما هو متوقع من رفض بلاط اشبيلية وحكامه من بني عبّاد، وهم ينتمون إلى أعرق البيوتات العربية هذه البيعة. وقام أحد كتابه بالرد على ابن برد فكان النموذج الثاني، ويتمثل في :

2 رسالة كتبها أبو الوليد اسماعيل الحميري صاحب كتاب (البديع في وصف الرّبيع) وبعث بها إلى المعتضد بن عبّاد حاكم اشبيلية، وقد استهلها بقوله : (كان في اجتماع بعض النواوير واتفاق طائفة من الأزاهير على تقديم الورد عليها وتفضيله بينها وتخيّره للخلافة منها ما قد وقفت عليه ونظرت إليه... فأول من رأى ذلك الكتاب وعاين الخطاب نواوير فصل الربيع التي هي خيرة الورود في الوطن وصحابته في الزمن. فلما قرأته أكبرت ما فيه وبنت على هدم مبانيه وبعض معانيه، وعرّفت الورد بما عليه، فيما نسب إليه من استحقاقه ما لا يستحقه واستئهاله ما لا يستأهله...)[19] وانتهى النقاش بين الأنوار بنقض

بيعة الورد ومبايعة البهار وطلب الصفح والغفران منه وقد وقع التعدي على حقوقه في الرئاسة والخلافة. وهذه شهادة الخيري الأصفر : (رمل)[20]

أصْفَـرُ الخَيْـرِي يَشْهَـد	أنَّ عَقْـد الـوَرْدِ قَـدْ رُدْ
وَيَـرَى أنّ البَهَـارَ الـ	مُنْتَقَـى أعْلَـى وَأمْجَـدْ
مَلِـك يَقْظَـانُ يَأتِـي	وَصُنُـوفُ النَّـوْرِ هُجَّـدْ

وتتوالى شهادة بقيّة النواوير ونقض بيعتهم للورد ومبايعة البهار نثرا وشعرا[21]. وليس بخاف ما في هذه الأبيات وغيرها من دعوة سياسية صريحة لبلاط اشبيلية العربي ضد بلاط دانية الأعجمي. وقد يأخذ مثل هذا التنافس الخفيّ شكل التنابز الصريح. فهذا مجاهد العامري ـ وقد استقطب بلاطه الصراع الشعوبي بالأندلس في القرن 11/5 ـ لما فسدت علاقته بصاحب بلنسيّة المنصور بن أبي عامر الأصغر، ولم يجد من سبيل إلى الاعتداء عليه، كتب إليه رقعة ولم يضمنها غير بيت الخطيئة. (بسيط)[22]

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا	واقْعُدْ فَإنَّكَ أنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

فأخرجت المنصور وأقامته وأقعدته ـ على حد تعبير صاحب النفح ـ فأحضر وزيره أبا عامر بن التاكرني فكتب عنه (كامل)[23]

شَتَمَتْ مَوَالِيهَا عَبيدُ نِزَارِ	شِيمُ العبِيدِ شَتِيمَةُ الأحْرَارِ

وهو بيت يلمّح لعبودية مجاهد، فهو مولى لبني عامر، وسخريته بأحد منهم إنما هي نموذج لتطاول العبيد من الموالي على سادتهم العرب.

3) الصراع بين العرب والبربر : لقد بدا الصراع بين العرب والبربر واضحا أثناء الفتنة الكبرى بقرطبة، وحمّل بعضُ المؤرخين من العرب تبعة هذه الفتنة البربرَ فسمّاها بالفتنة البربرية رغم أن العنصرين العربي والصقلبي لعبا فيها دورا لا يقل سلبية عن الدور البربري.

ولئن لم يتمكن العنصر البربري من الحلول محلّ العنصر العربي في أعلى هرم السلطة إلا لمدة سنوات معدودات مع الخلفاء من بني حمّود أثناء الفتنة الكبرى، فقد تمكنوا في مرحلة أولى أن يكون لهم نصيب من بلاد الأندلس بعد انهيار الخلافة الأموية بقرطبة فأسسوا بعض الامارات الطائفية في غرناطة وبطليوس وطليطلة. وتمكّنوا في مرحلة ثانية من أن يجعلوا كامل بلاد الأندلس ولاية بربرية تابعة لهم بمراكش زمن الدولة المرابطية القوية.

ولئن اسُتُقْبل المرابطي أول الأمر في الأندلس باعتباره أخا منقذا فقد أصبح يعدّ بعد فترة وجيزة غازيا ثقيل الظل. وفي المادة الشعرية تجد تطورا ملحوظا لهذا الشعور، فقد

بدأ بتحامل الأندلسي على المرابطي. من ذلك ما ترويه كتب التاريخ من أن المعتمد بن عبّاد سأل يوسف ابن تاشفين وقد أنشده الشعراء (أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ قال : لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز. ولما انصرف عن المعتمد إلى حضرة ملكه كتب له المعتمد رسالة فيها (بسيط)[24]

بِنْتُمْ وَبِنَّا فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا ... شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلاَ جَفَّتْ مَآقِينَا
حَالَتْ لِفَقْدِكُمُ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ ... سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضًا لَيَالِينَا

فلما قُرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء : (يطلب منا جواري سودا وبيضا. قال : لا يا مولانا ما أراد إلا أنّ ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارا لأن ليالي السرور بيض، فعاد نهاره ببعده ليلا، لأن أيام الحزن ليال سود. فقال : والله جيّد. أكتب له في جوابه : أن دموعنا تجري عليه ورؤوسنا توجعنا من بعده). وتطوّر هذا التحامل إلى كره وأصبح الكره نفورا، وانقلب النفور إلى ثورة حسب ما تذكره المادة التاريخية.

أما المادة الشعرية فنجد فيها تنديدا وتشنيعا بالمرابطي بعد انخذاله أمام العدو النصراني، وشدّته في معاملة أهل الأندلس قال اليكّي[25] (كامل)[26].

إِنَّ المُرَابِطَ لاَ يَكُونُ مُرَابِطًا ... حتَّى تَرَاهُ إذا تَرَاهُ جَبَانًا
تَجْلُو الرَّعِيَّةُ مِنْ مَخَافَةِ جَوْرِهِ ... لِجَلاَئِهِ إِذْ يَلْتَقِي الأَقْرَانَا
إِنْ تَظْلِمُونَا نَنْتَصِفْ لِنُفُوسِنَا ... يَجْنِي الرِّجَالُ فَنَأْخُذُ النِّسْوَانَا

أما ابن أبي الخصال[27]، فرغم أنه كان يعمل في بلاط المسلمين وينعم بكثير من الامتيازات، فإنه لم يستطع أن يكبح جماح نفسه، ويخفي شعوره الوطني. واغتنم أول فرصة أتيحت له عندما أمره علي بن يوسف بن تاشفين أن يكتب رسالة توبيخ لجند بلنسية إثر تخاذلهم أمام بعض الجيوش النصرانية، فصبّ جام غضبه على الحامية المرابطية ونال منها فكشف بذلك عن ضغن خفيّ شاركه فيه جل الأندلسيين، بدليل أن الرسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها. ومما جاء فيها شعرا قوله وقد تجاوز فيه حد الاشارة والتعريض إلى الذمّ الصريح (متقارب)[28]

إِلَى مَ (يُزَيِّفُكُمُ)[29] النَّاقِدُ ... وَيُرديكُمُ الفَارِسُ الوَاحِدُ[30]
أَلاَ هَلْ أَتَاهَا عَلَى نَأْيِهَا ... بِمَا فَضَحَتْ قَوْمَهَا غَامِدُ
تَمَنَّيْتُم مِائَتَيْ فَارِسٍ ... فَرَدَّكُمُ فَارِسٌ وَاحِدُ
فَلَيْتَ لَكُمْ بِارْتِبَاطِ الخُيُولِ ... ضِئَانًا لَهَا حَالِبٌ قَاعِدُ

إن إنتقال المرابطيّ فجأة من بساطة الحياة البدوية إلى نعيم الحضارة الأندلسية أفقده شجاعته. وبانغماسه في أجواء اللذّة والمتعة فقد حياءه وعفّته قال اليكّي (كامل)(31) :

فِي كُلِّ مَنْ رَبَطَ اللِّثَامَ دَنَاءَةٌ   وَلَوْ أَنَّهُ يَعْلُو عَلَى كَيْوَانِ
مَا الْفَجْرُ عِنْدَهُمْ سِوَى أَنْ يَنْقُلُوا   مِنْ بَطْنِ زَانِيَةٍ لِظَهْرِ حِصَانِ
الْمُنْتَمُونَ لِحِمْيَرٍ لَكِنَّهُمْ   وَضَعُوا الْقُرونَ مَوَاضِعَ التِّيجَانِ
لاَ تَطْلُبَنَّ مُرَابِطًا ذَا عِفَّةٍ   وَاطْلُبْ شُعَاعَ النَّارِ فِي الْغُدْرَانِ

واللثام الذي كان رمزا للمرابطي في سموّ أخلاقه وعلوُّ همته أصبح ستارا له لسوء سلوكه وقبح فعاله(32) قال اليكّي (كامل)(33) :

إِنَّ الْمُرَابِطَ بَاخِلٌ بِنَوَالِهِ   لَكِنَّهُ بِعِيَالِهِ يَتَكَرَّمُ
الْوَجْهُ مِنْهُ مُخَلَّقٌ بِقَبِيح ما   يَأْتِيهِ فَهْوَ مِن أَجْلِهِ يَتَلَثَّمُ

وبهذا السلوك المشين والانحراف المقيت تنتفي صفة الانسانية عن هذا المرابطي وأمثاله. قال اليكّي (بسيط)(34) :

رَأَيْتُ آدَمَ فِي نَوْمِي فَقُلْتُ لَهُ   أَبَا الْبَرِيَّةِ إِنَّ النَّاسَ قَدْ حَكَمُوا :
أَنَّ الزَّرَاجِينَ(35) رَهْطٌ مِنْكَ قَالَ إِذَنْ   حَوَّاءُ طَالِقَةٌ إِنْ كَانَ مَا زَعَمُوا(36)

II) ومن حيث الأحداث يلاحظ القارىء لتاريخ الأندلس أنه عبارة عن سلسلة من المعارك بين الصليب والهلال طيلة حوالي ثمانية قرون كان التفوق أول الأمر للمسلمين ثم أصبحت المعارك سجالا لتنتهي في نهاية المطاف إلى انتصار ساحق للنصارى.

وبدت علاقة المسلم الأندلسي بالنصراني الإسباني من خلال تركيز المؤرخين على الأحداث الرسمية علاقة حقد وبغض وكراهية. فالمسلم لا يلتقي بالنصراني إلا في ساحة الوغى ولا لغة بينهما إلا لغة السّيف ولا رابط بينهما إلا حب الانتقام والأخذ بالثأر.

وهذا لئن كان صحيحا في جملته، فهو لا يقدّم لنا الواقع المعيش. فالاختلاف بين الملّتين النصرانية والاسلامية، على أرض شبه الجزيرة الايبيرية لم يقض تماما على بعض الفترات التي تسمو فيها النفس الانسانية وتتخلّص من أدرانها، لتعانق قيما من الحبّ والتّسامح. وفي هذا المضمار يمكّننا الشعر ـ وهو لغة الوجدان ـ من أمثلة واضحة على ذلك :

1) الألم لقتلى النصارى في معركة أقليش : دارت هذه المعركة التي تعرف في المصادر الاسبانية بمعركة الكنتات السبعة سنة 1108/501 بين الجيش المرابطي والجيش النصراني. وانتهت بانتصار ساحق للمسلمين. وقد جاء ذكر هذه المعركة عرضا في ديوان الأعمى

التطيلي بمناسبة مدحه للبطل وهو أحمد بن أبي الربيع ابن عبد الملك. قال الشاعر (طويل)[37] :

31 ـ سَلِ الرُّومَ فِي أُقْلِيشَ يَومَ تَجَايَشُوا أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الفَرَائِسَ للأُسْدِ
32 ـ تَبَارَوْا إِلَى تِلْكَ الحُتُوفِ فَسَلْهُمُ أَمَا كَانَ عَنْهَا مِنْ مَحِيصٍ وَلاَ بُدِّ ؟

فالشاعر بهذا الاستفهام الإنكاري يبدو ـ رغم شعوره بنشوة الانتصار في كامل القصيد ـ كأنه يدعو متأسفا إلى تجنّب الحرب وخلق بديل لها في علاقة سكان الجزيرة الأندلسية من مسلمين ونصارى.

ويتدعم هذا الاستنتاج في وصف الشاعر لقتلى النصارى بقوله[38] :

39 ـ وَحَتَّى تَدُوسَ الخَيْلُ أَوْجُهَ فِتْيَةٍ كِرَامٍ عَلَيْهَا غَيْرَ شُؤْمٍ وَلاَ نُكْدِ

فالشاعر لا يخفي ألمه لهذه الوجوه الكريمة من الشباب النصراني تزيد سنابك الخيل في تشويهها بعد أن شوهتها طعنات الرماح وضربات السيوف.

2) الحب لا يعرف الحقد : أما المثال الثاني المجسّم لنموّ نبتة الحب والتسامح وسط أشواك الحقد والضغينة، فنجده في ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي : وهو شاعر من القرن 15/9 عاش بمدينة بسطة ووقع في الأسر، وحُمل إلى مدينة آبره في أراضي قشتالة. ولنا في هذا الديوان صورة حيّة لا نجدها في كل كتب التاريخ عن ظروف عيش الأسير المسلم في القرن 15/9 لدى النصارى. وهي ظروف تجعل الأسير يعيش عذابا ماديا ونفسيا متواصلا : فالقيسي وهو الفقيه الامام يكلّفه النصارى بأعمال لا تليق بمقامه العلمي والديني قصد الاهانة والتشفّي فيقول ضجرا متألما (كامل)[39] :

وَاحَسْرَتِي بَعْدَ اشْتِغَالِي بِالعُلُو مِ وَدَرْسِهَا وَتِلاَوَةِ القُرْآنِ
أُمْسِي وَأُصْبِحُ خَادِمًا مُتَصَرِّفًا لِعِبَادَةِ الأَصْنَامِ وَالأَوْثَانِ
إِنْ لَمْ أَكُنْ بِالْحَفْرِ مُشْتَغِلاً أَكُنْ بِالْهَدْمِ مُشْتَغِلاً مَعَ الْبُنْيَانِ
وَالْكَنْسُ فِي يَوْمِ الجُلُوسِ صِنَاعَتِي وَالرَّشُّ يَتْبَعُهُ مَدَى الأَحْيَانِ
فَثِيَابُهُم أَدْرَانُهَا مَغْسُولَةٌ بِيَدِي وَثَوْبِي الدَّهْرَ بِالأَدْرَانِ

ومع ذلك لا يحقد القيسي على هذا المجتمع بل ينسى عذابه ويهفو قلبه لفتاة نصرانية تدعى ألبيرة تبادله هي الأخرى ـ رغم الحواجز ـ هذا الحبّ فيقول (طويل)[40] :

فَأَعْجَبُ عُبَّادِ الصَّلِيبِ صَبِيَّةٌ سَبَتْنِي بِوَجْهٍ مِثْلَ بَدْرٍ مُتَمَّمِ
فَبِتُّ حَلِيفَ الهَمِّ مِنْ فَرْطِ حُبِّهَا وَبَاتَتْ بِهَجْرِي فِي فِرَاشٍ تَنَعُّمِ
وَكَمْ نَعَمَتْنِي مِنْ لَذِيذِ وِصَالِهَا بِمَا لَمْ تَصِلْ نَفْسِي لَهُ بِتَوَهُّمِ

فَقَبَّلْتُ مِنْهَا الخَدَّ وَهْوَ مُـوَرَّدٌ   وَثَنَيْتُ بِالثَّغْرِ المَلِيحِ التَّبَسُّمِ
وَمَالَتْ لِفَرْطِ السّكْرِ وَهْيَ مَرِيضَةٌ   كَمَيْلِ الصَّبَا صُبْحًا بِغُصْنِ تَنَعُّمِ
وَلَـوْلاَ عَفَافِي واتّقَـاءُ عِتَابِـهَـا   تَمَتَّعْتُ مِنْهَا بِالمَحَلِّ المُحَرَّمِ

3) الدّين مختلف والوطن واحد : أما النموذج الثالث فيتمثل في تمسّك الأندلسيين بالعيش في مدينة طليطلة بعد سقوطها في يد ألفونسو السادس سنة 1085/478 وخضوعهم للحكم النصراني المباشر. لقد برّر الباقون موقفهم هذا جهرا وعلانية في المادة الشعرية : فأموالهم وأرزاقهم ودورهم وضياعهم مانعة لهم من التحوّل عن أرض تعلّقوا بها، ووجدوا مع ملوك النصارى ـ وخاصة ألفونسو السادس ـ حماية وأمنا مقابل ما يدفعونه من مغرم كانوا يدفعون مثله وفي بعض الأحيان أكثر منه لأمرائهم وملوكهم من المسلمين. قال شاعر طليطلة (وافر)[41] :

أَنَتْـرُكُ دُورَنَـا وَنَفِـرُّ عَنْهَـا   وَلَيْسَ لَنَا وَرَاءَ البَحْـرِ دُورُ ؟
وَلاَ ثَمَّ الضِّيَاعُ تَرُوقُ حُسْنًـا   نُبَاكِرُهَـا فَيُعْجِبُنَـا البُكُـورُ
يُـؤَدِّي مَغْرَمٌ فِي كُلِّ شَهْـرٍ   وَيُؤْخَـذُ كُلَّ صَائِفَةٍ عُشُـورُ
فَهُمْ أَحْمَـى لِحَوْزَتِنَا وَأَوْلَـى   بِنَا وَهُمُ المَوَالِي وَالعَشِيـرُ

وفي البيت الأخير يبدو التسامح واضحا عندما يصف الشاعر المسلم ـ على لسان من رضي بالبقاء في طليطلة ـ النصارى بالموالي ويردفها بالعشير. وصل الأمر ببعض من اندمج مع المحيط النصراني من أهل طليطلة إلى التنصّر. فهذا فقيه طليطلة أبو القاسم الخيّاط لم يكتف بالبقاء تحت النفوذ النصراني بل تنصّر وبرّر تنصّره بقوله (طويل)[42] :

تَلَـوَّنَ كَالحِرْبَـاءِ حِيـنَ تَلَـوَّنَ   وَأَبْصَـرَ دُنْيَـاهُ بِمِـلْءِ جُفُونِـهِ
وَكُلّ إِلَى الرَّحْمَانِ يُومِي بِوَجْهِهِ   وَيَذْكُـرُهُ فِـي خَيْـرِهِ وَيَقِينِـهِ
وَلَوْ أَنَّ دِينًا كَانَ نَفْيًا لِخَالِقِي   لَمَا كُنْتُ يَوْمًا دَاخِلاً فِي فُنُونِهِ

4) تدخّل الأمير المسلم للإصلاح ذات البين بين أميرين نصرانيين : تعتبر منطقة الثغر الأعلى من المناطق التي كان فيها الاحتكاك بين المسلمين والنصارى كبيرا. وفرضت الحياة بين إمارات هذه المنطقة النصرانية والاسلامية ضربا من التعايش السلمي نلاحظه في بعض القصائد المدحيّة التي قالها ابن درّاج القسطلّي في مدح أمراء بني هود وبني تجيب حكام سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى. فالأمير المنذر بن يحيى (1017/408 ـ 1023/414). لم يكتف ـ حسب هذه المادة الشعرية ـ بخلق توازن بينه وبين هذه الامارات يسمح بتعايش سلمي، بل خلق لديها شعورا بالثقة فيه والاحتكام إليه. ولم يأل هذا الأمير جهدا في إصلاح ذات البين بين الأمراء المسيحيين أنفسهم ووصل به الأمر إلى تنظيم حفل لعقد المصاهرة بين أميرين من أمراء النصارى : ابنُ فردلند ملك قشتالة وابنُ رايمند قومسُ برشلونة على

أساس أن يزوّج هذا الأخير ابنته إلى ابن الأول، وما عقد هذه المصاهرة والمنذر شاهدها إلا دليل على ثقتهم فيه وبرهان على النية في إحلال السلام والوئام بينهم محلّ القطيعة والصدام. قال ابن درّاج (كامل)(43) :

وَجَنَحْتَ للسّلْمِ الّتِي جَنحُوا لَهَا   وَقضَاءُ رَبِّكَ فِي العِبَادِ خِيَارُ
فَأتَوْكَ مُسْتَبِقِينَ قَدْ قَرُبَ الْمَدَى   مِنْهُمْ إلَيْكَ وَذُلِّلَ المِضْمَارُ
آيَاتُ نَصْرٍ فِي الْوَرَى بِسُيُوفِهَا   أمِنَ الهُدَاةُ وَآمَنَ الكُفَّارُ

ولقد كانت هذه المصاهرة التي شهدها الرّهبان والأحبار عقدا كفيلا بإلقاء السكينة في النفوس والطمأنينة على القلوب فسكنت الهواجس وانحلت المخاوف(44) :

فَهُنَاكَ أُخْلِصَتِ النُّفُوسُ وَأُكِّدَتْ   عُقَدُ الْعُهُودِ وشَدَّتِ الأنْصَارُ

وهذه السياسة، لم تعجب بعض أهل سرقسطة، فقد رأوا فيها صلحا بين الأعداء يزدادون به اتحادا وقوة، وبالتالي خطرا عليهم. لكن الشاعر يرى أن سياسة القوّة والمجابهة قد تخضّد من شوكة العدو، أما سياسة السلم والمهادنة فتجعله تابعا للممدوح وصنيعة له. قال ابن درّاج(45) :

عَلَى أنَّ بَعْضَ الْعَفْوِ قَتْلٌ وَمَغْنَمٌ   وَمَا رَدَّ رِيحَ الْمُلْكِ فِي الْحَرْبِ حَازِمٌ
فَإنَّ قَتِيلَ السَّيْفِ لِلذِّيبِ مَطْعَمٌ   وَإنَّ قَتِيلَ العَفْوِ لِلْمُلْكِ خَادِمُ
بِعَقْدِ بِنَاءٍ أنْتَ شِدْتَ بِنَاءَهُ   وَلَيْسَ لَهُ فِي الأرْضِ غَيْرَكَ هَادِمُ
فِرَنْجَةُ أعْلاَهُ وَقَشْتِلُ أُسُّهُ(46)   وَسلمُكَ أرْكَانٌ لَهُ وَدَعَائِمُ

5) الجنوح إلى السلم رغم التفوّق العسكري : ومن أمثلة التسامح في تاريخ الأندلس في عهد المرابطين ما قام به أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين من حصار لطليطلة سنة 1109/503 بعد أن حقّق الهدف من حملته وهو إظهار عزّ الاسلام وقوّته أمام النصارى. ولئن رأى بعضهم في هذا التراجع عن الحصار عجزا عن النيل من المدينة الحصينة، فقد رأت فيه المادة الشعرية مظهرا من مظاهر نبل الفروسية العربية وشهامتها ونموذج من الدين الاسلامي في سماحته ومثله العليا. وليس هذا الموقف من الممدوح فريدا من نوعه، فقد كان له نظائر في تاريخ الاسلام كتراجع الرسول عن الطائف، وكان قادرا على فتحها، وتراجعه عن مكّة وعقده صلح الحديبية حبّا في السلم وحقنا للدماء. فإذا كان الرسول قد فعل هذا فلِمَ لا يقتدي به الممدوح ؟ (وفر)(47) :

51 ـ لأمْرٍ مَا رَدَدْتَ الخَيْلَ عَنْهُمْ   وَقَدْ جَعَلَتْ مَحَايِنُهُمْ تَحِينُ
52 ـ وأُسْوَتُكَ الرَّسُولُ وَإنْ يَشُكُّوا   فَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ
53 ـ ثَنَاهَا عَنْ ثَقِيفٍ وَالْعَوَالِي   بِهِمْ لَجَبٌ وَدُونَهُمْ رَنِينُ

54 ـ فَوافَاهُ بِهِمْ ظَمَأٌ وَخَوْفٌ   وَمِقْدَارٌ أَتَى بِهِمْ وَحِينُ
55 ـ وَهَادَنَ أَهْلَ مَكَّةَ عَنْ دِمَاهَا   وَقَدْ تَكْفِي عَنِ الْحَرْبِ الْهُدُونُ

III) ومن حيث التدقيق في بعض الأحداث، واعتمادا دائما على المادة الشعرية يمكن أن نورد الأمثلة التالية :

1) سقوط غرناطة 1492/897 :

لقد جاء في جل المصادر والمراجع أن سقوط غرناطة كان بالدرجة الأولى نتيجة لتخاذل أهلها وحكّامها أمام الجيش النصراني المعاصر.

ويكفي أن نتمعّن في بعض القصائد الشعرية التي وصلتنا حتى ندرك أن الحقيقة قد تكون أعمق من ذلك بكثير.

إن النصارى لم يصلوا إلى محاصرة غرناطة إلا بعد أن اقتحموا كل المدن والقلاع والحصون في مملكة بني الأحمر، وأصبحت هذه المدينة المحاصرة تضم نخبة الفروسية الأندلسية ممن صمّموا على الدفاع عن المدينة والأخذ بثأر من أزهقت أرواحهم ومَن انتهكت أعراضهم ومن سُلبت أموالهم وأرزاقهم. وكانوا يرون أن الموت أفضل بكثير من الاستسلام للعدوّ والخضوع لشروطه وإرادته.

وكان لهذه الخلاصة النقيّة من الجند الغرناطي جولات مع جيش فرديناند. فقد كانوا يخرجون من المدينة المحاصرة ويشتبكون مع العدوّ يثخنون في محلاته، مقدّمين بذلك ضروبا رائعة من البطولة والاقدام، نوّهت بها المصادر النصرانية نفسها، وأشارت إليها المادة الشعرية. قال أبو عبد الله العقيلي (بسيط)(48) :

فَكَمْ مَوَاقِفَ صِدْقٍ فِي الجِهَادِ لَنَا   والخَيْلُ عَالِكَةُ الأشْدَاقِ لِلُّجُمِ
وَالسيْفُ يَخْضُبُ بالمُحْمَرِّ مِنْ عَلَقٍ   مَا ابْيَضَّ مِنْ سُبُلٍ واسْوَدَّ مِنْ لِمَمِ

كما تشير المادة الشعرية بكل وضوح إلى أن الجيش النصراني ـ وكانت تدعمه قوّات متطوّعة من كامل أوروبا ـ استعمل في دكّه لأسوار مدينة غرناطة آلات تشبه المدافع لم يكن للمسلمين ما يشبهها. وهذا يؤكد أن سقوط المدينة يرجع إلى انخرام ميزان القوى بين المحاصَر والمحاصِر. قال أبو العبّاس الدّقون متحدّثا عن هذه الآلات (بسيط)(49) :

يَسْبِي الْمَسَامِعَ بِالأنْفَاطِ مُشْبِهَةً   وَقْعَ الصَّوَاعِقِ فِي هَدٍّ وَزِلْزَالِ

وقال الشاعر الموريسكي واصفا هذه الصواعق (طويل)(50) :

وَجَاؤُوا بِأَنْفَاطٍ عِظَامٍ كَثِيرَةٍ   تُهَدِّمُ أَسْوَارَ البِلَادِ الْمَنِيعَةِ

لم تهمل المادة الشعرية الاشارة إلى جوانب سلبية في المجتمع الغرناطي أدت إلى سقوط المدينة. فقد لمّحت إلى ما كان يدور داخل غرناطة من صراع بين الأسر الكبرى ذات الحلّ والعقد، ملأ قلوب المتناحرين فيما بينهم حقدا وضغينة، وأضعف ما كان في نفوس ذوي النوايا الحسنة من همّة وعزم. قال أبو العبّاس الدقون (بسيط)(51) :

وَالمُسْلِمُونَ مِنَ الأضْغَانِ قَدْ مُلِئَتْ قُلُوبُهُمْ وَأَبَوْا تَسْدِيدَ أَخْلاَلِ
والحَقُّ مُخْتَلِفٌ والحُمْقُ مُؤْتَلِفٌ والكُلُّ مُنْصَرِفٌ عَنْ نَصْرِ أَبْطَالِ

وأكدت المادة الشعرية على عاملين أساسيين في سقوط المدينة :

أ) عامل نفسي : وهو الخوف من دخول العدوّ المدينة عنوة، فكان الاختيار لأخفّ الضررين. وأشد ما كان يخيف أهل غرناطة هو مصير المستضعفين منهم كالأطفال والنّساء لو لم تسلّم المدينة صلحا. قال الشاعر الموريسكي على لسان أهل غرناطة إلى با يزيد السلطان التركي (طويل)(52) :

وَخَوفًا عَلَى أَبْنَائِنَا وَبَنَاتِنَا مِنْ أَنْ يُؤْسَرُوا أَوْ يُقْتَلُوا شَرَّ قَتْلَةِ

ب) عامل اقتصادي : وهو انعدام الأقوات، خاصة عندما دخل فصلُ الشتاء وانقطع أو كادَ الطريق الوحيدُ المموّن للمدينة، هو طريق البشرات ناحية جبل شلير بسبب تساقط الثلوج. قال الشاعر الموريسكي(53) :

فَلَمّا تَفَانَتْ خَيْلُنَا وَرِجَالُنَا وَلَمْ نَرَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ إِغَاثَةِ
وَقَلَّتْ لَنَا الأقْوَاتُ واشْتَدَّ حَالُنَا أَطَعْنَاهُمُ بالكُرْهِخَوْفَ الْفَضِيحَةِ

2 ـ مأساة الموريسكيّين بعد سقوط غرناطة :

لقد بدأ الاهتمام بهذه الأقلّية المسلمة التي عاشت وسط مجتمع لا يكنّ لها إلا الحقد والبغض حديثا. وبدأ الباحثون يكتشفون تفاصيل رهيبة عن مأساة هؤلاء الموريسكيين من خلال مصدرين أساسيين :

1) المصدر الأول : هو ما نكتشفه من حين لآخر في المخطوطات العربية الأندلسية من منظوم ومنثور يتعلق بحياة الموريسكيين، وهو تراث كتب بلغة عربية بدأت عليها علامات الضعف والانحلال واضحة.

2) المصدر الثاني : الأدب الألخميادو : وهو أدب ـ بالمفهوم العام لكلمة أدب ـ كتبه الموريسكيون سرا بعد أن فقدوا نهائيا القدرة على الكتابة باللغة العربية، فجاء أدبهم في لغة قشتالية بحروف عربية، وقد بدأت الدراسات في جامعات أروبية وأمريكية تهتمّ بهذا الأدب. وما زال العرب إلى اليوم لم يحرّكوا ساكنا في هذا الاتجاه.

ومن النوع الأول عثرنا على قصيدة موريسكية مهلهلة من حيث الصيغة الفنية، ولكنها هامة من الناحية التاريخية موجّهة إلى السلطان بايزيد التركي (ت 1512/918) موضوعها استصراخ هذا السلطان لنجدة المسلمين الموريسكيين المنصّرين قهرا وجبرا.

وأهمية هذه القصيدة من الناحية التاريخية، تبدو في طرحها لقضية الأقليات التي تعيش في مجتمع يختلف عنها لغة ودينا وحضارة. فهؤلاء الموريسكيون من خلال هذه القصيدة طالبوا أن يعاملوا بمثل ما يعامل به النصارى في أرض الاسلام. جاء في القصيدة والخطاب موجه لبايزيد(54) :

76 ـ فَسَلْ بَابَهُمْ أعْنِي المُقِيمَ بِرُومَةَ لِمَاذَا أَجَازُوا الغَدْرَ بَعْدَ الأَمَانَـةِ
77 ـ وَمَا لَهُمْ مَالُوا عَلَيْنَا بِغَدْرِهِـمْ بِغَيْـرِ أَذًى مِنَّـا وَغَيْـرِ جَرِيمَـةِ
78 ـ وَجِنْسُهُمُ المَغْلُوبُ فِي حِفْظِ دِينِنَا وَأَمْـنِ مُلُوكٍ ذِي وَفَـاءٍ أَجِلَّـةِ
79 ـ وَلَمْ يُخْرَجُوا مِنْ دِينِهِم ودِيَارِهِم وَلاَ نَالَهُمْ غَـدْرٌ وَلاَ هَتْكُ حُرْمَةِ

من خلال هذه الأبيات نتأكد أن الباب هو الذي كان يدير خيوط اللعبة ضد الموريسكيين. ولهذا طلبت القصيدة من السلطان مخاطبة البابا مباشرة لما له من تأثير في أصحاب السلطة باسبانيا.

والقصيدة بصفة عامة تقدّم لنا أمثلة دقيقة ومفصّلة عن المعاملة القاسية التي تعرّض لها الموريسكيون، قد لا نجدها بمثل هذا التفصيل في كتب التاريخ. فقد كان النصارى يفسدون عليهم صومهم، جاء في القصيدة(54) :

48 ـ وَفِي رَمَضَانَ يُفْسِدُونَ صِيَامَنَا بِأَكْلٍ وَشُرْبٍ مَـرَّةً بَعْـدَ مَـرَّةِ

ويرغمونهم على ترك موتاهم دون دفن إذا لم يحضر رجل الدين المسيحي ليعاين أنه مات على دين النصارى(55) :

52 ـ وَمَنْ جَاءَهُ المَوْتُ وَلَمْ يَحْضُرِ الَّذِي يُـذَكِّرُهُـمْ لَـمْ يَـدْفِنُـوهُ بِحِيلَـةِ
53 ـ وَيُتْرَكُ فِي زِبْلٍ طَرِيحًا مُجَدَّلاً كَمِثْلِ حِمَارٍ مَيِّـتٍ أَوْ بَـهِيمَـةِ

ويحرقون الكتب وخاصة المصاحف(55) :

43 ـ وَكُلُّ كِتَابٍ كَانَ فِي أَمْرِ دِينِنَا فَفِي النَّـارِ أَلْقَوهُ بِـهُزْءٍ وَحُقْرَةِ
42 ـ وَأَحْرَقَ مَا كَانَتْ لَنَا مِنْ مَصَاحِفٍ وَخلَّطَـهَـا بِالـزِّبْـلِ أَوْ بِالـنَّجَاسَـةِ

وأهول من ذلك على المسلم أن يجبر على عدم ذكر الرسول بل على سبّه أحيانا :

49 ـ وَقَدْ أَمَرُونَا أَنْ نَسُبَّ نَبِيَّنَـا وَلاَ نَـذْكُـرَنَّـهُ فِي رَخَـاءٍ وَشِـدَّةِ

وتنفرد القصيدة ـ دون سائر المصادر العربية ـ بذكر خبر وصول وفد مصري ليتعرّف على حالة الموريسكيين عن كثب وليخبر السلطات الاسبانية أن السلطان المملوكي قد يضطرّ إلى معاملة رعاياه النصارى بمثل ما يعامل به الموريسكيون في مملكة اسبانيا. وقد أكدت المصادر الأجنبية ـ وخاصة لويس مارمول ـ على وصول هذا الوفد سنة 1500/915.

ومن الطريف في هذه القصيدة أن بعض الموريسكيين أجبروا على التظاهر أمام هذا الوفد بحسن معاملة النصارى لهم وبأنهم تنصّروا اختيارا حتى لا يتعرضوا إلى الهلاك بعد رحيل الوفد. جاء في القصيدة[55] :

84 ـ وَقَدْ بَلَغَتْ أَرْسَالُ مِصْرَ إِلَيْهِمُ وَما نَالَهَا غَدْرٌ وَلاَ هَتْكُ حُرْمَةِ
85 ـ وَقَالُوا لِتِلْكَ الرُّسْلِ عَنَّا بِأَنَّنَا رَضينَا بِدِينِ الكُفْرِ مِنْ غَيْرِ قَهْرَةِ
86 ـ وَسَاقُوا عُقُودَ الزُّورِ مِمَّنْ أَطَاعَهُمْ وَوَاللهِ مَا نَرْضَى بِتِلْكَ الشَّهَادَةِ

لقد كانت هذه الأمة المقهورة عسكريا تأمل ـ بعد ضبط بنود استسلام غرناطة ـ في حياة تنعم فيها بالأمن والطمأنينة تحت النفوذ النصراني، ويلوح هذا الأمل قويا في نفوسهم، باديء ذي بدء، لأنهم كانوا يعتقدون أن روح التسامح الديني هي التي ستسود في نهاية الأمر بين الفئتين النصرانية والاسلامية. ولهم من الماضي في تاريخ الأندلس أمثلة عديدة على ذلك، ولهم من الحاضر كذلك نماذج في مصر وفي ولايات عديدة من الامبراطورية العثمانية في شرقي أروبا. فقد كان النصارى في هذه البلدان ينعمون نسبيا بحرية دينية.

ولهذا السبب كان الشعور بخيبة الأمل قويا في نفوس الموريسكيين بعد أن تنكّر ملوك اسبانيا لعهودهم، ونقضوا بنود اتفاقية الاستسلام ويلوح هذا الشعور بالمرارة في الأبيات التالية[56] :

56 ـ فَآهًا عَلَى تَبْدِيلِ دِينِ مُحَمَّدِ بِدِينِ كِلاَبِ الرُّومِ شَرِّ البَرِيَّةِ
57 ـ وآهًا عَلَى أَسْمَائِنَا حِينَ بُدِّلَتْ بِأَسْمَاءِ أَعْلاَجٍ مِنْ أَهْلِ الْغَبَاوَةِ
58 ـ وَآهًا على أَبْنَائِنَا وَبَنَاتِنَا يَرُوحُونَ لِلْبَاطِ فِي كُلِّ غُدْوَةٍ
59 ـ وَآهًا عَلَى تِلْكَ المَسَاجِد سُورَت مَزَابِلَ لِلْكُفَّارِ بَعْدَ الطَّهَارَةِ
60 ـ وَآهًا على تِلْكَ الصَّوامِعِ عُلِّقَت نَواقِيسُهُم فيهَا نَظِيرَ الشَّهَادَةِ

ولئن نادى الموريسكيون بتذكير ملوك اسبانيا بهذه القيم والمبادىء في التعامل الانساني، فلايمانهم أول الأمر أن التسامح الموجود في أرض الاسلام يمكن أن يوجد كذلك في أرض النصارى.

IV) ومن حيث الاضافات قد تنفرد المادة الشعرية بذكر أحداث كان من المفروض أن تكون موجودة في المصادر التاريخية، لكن لسبب من الأسباب لم توجد في المادة التاريخية

ووجدت في المادة الشعرية، وبذلك يقوم النصّ الشعري الأندلسي بسدّ ثغرات في تاريخ المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية. والأمثلة على ذلك متعدّدة نقتصر على ما يلي :

أ ـ معركة قبرة[57] :

جرت هذه المعركة أثناء الفتنة الكبرى في بداية القرن 5 هـ/11 م بين أهل قرطبة وعلى رأسهم الفتى خيران العامري من جهة والبربر من ناحية ثانية. ودارت فيها الدائرة على الحزب البربري، وكانت انتصارا باهرا للحزب الأندلسي.

ولئن أهمل المؤرخون يوم قبرة، فقد أشار إليه ابن درّاج ونوّه ببطولة الفتيان العامريين بقيادة خيران وصوّر انكسار البربر متشفيا (الطويل)[57] :

بِكُـلِّ كَمِـيِّ عَامِـرِيِّ يَسُوقُـهُ ... لِحَرِّ الوَغَى قَلْبٌ عَلى الدِّينِ حَرانُ
حَفَرَتْ لَهُمْ في يَوْمِ قَبْرَةَ بِالْقَنَا ... قُبُورا هَوَاءُ الْجَوِّ مِنْهُنَّ مَلآنُ
يَطِيرُ بِهَا هَامٌ وَنِسْرٌ وَنَاعِبٌ ... وَيَغْدُو بِهَا ذِيبٌ وَذِيخٌ وَسَرْحَانُ

ب ـ سقوط أنتقيرة ANTEQUERA[58] :

لما انتهت الهدنة بين غرناطة وقشتالة في أواخر العقد الأول من القرن 15/9، بادر المسلمون بالاستحواذ على بعض الحصون المتاخمة لثغورهم. فجاء ردّ الفعل القشتالي بقيادة فرناندو الوصيّ على عرش ابن أخيه خوان الثاني. وحاصر أنتقيرة في 21 ذي الحجّة 812 هـ/26 أفريل 1410 م. وأبدى أهل الحصن استماتة في الدّفاع عنه. وحاول يوسف الثالث من جهته إنقاذ الحصن، فاقترح عقد هدنة مع فرناندو، ولكنّ هذا الأخير رفضها، وأشار يوسف الثالث في ديوانه إلى هذا الرفض قائلا (الطويل)[59] :

لَئِنْ فَاتَ في أَمْسِ فَنَاءُ إِفْنَتِهِمْ[60] ... سَيَلْقَى غَدًا رُجْزَ العَذَابِ أَلِيمَا
وَسُحْقًا لَهُ حَيْثُ اسْتَخَفَّتْ حُلُومُه ... وَلَمْ يَرْجُ فَيَّاضَ الهِبَاتِ حَلِيمَا
وَلَمْ يَتَّخِذْ للصُّلْحِ مِنْهَا وَسِيلَةً ... يُرَضِّي مَسِيحًا قَصْدُهَا وَكَلِيمَا

واستمرّ فرناندو على حصار الحصن إلى أن سقط صلحا في 25 جمادى الأولى 813 هـ/25 سبتمبر 1410 م وخرج منه المسلمون بأموالهم إلى أرشذونة. ومنذ ذلك الحين أصبح فرناندو يعرف بفرناندو صاحب أنتقيرة تجسيما لهذا الانتصار الباهر الذي لم تعرفه قشتالة منذ وقعة طريف[61].

وأغفلت المصادر العربية ذكر هذا الحدث، ولم يرد ذكره إلا في المادّة الشعرية من خلال تخميس نظمه يوسف الثالث نفسه يعترف فيه اعتراف البطل الجريء بالهزيمة. وهذا الاعتراف ليس من باب التفجّع، وإنما هو من باب التأسي، فيه إقرار بأن الحرب سجال :

يوم لك ويوم عليك. وفيه إيمان إيجابي بمفهوم القضاء والقدر بما يبعثه في النفس من صبر على ما حلّ، وعزم على تفادي ما حدث، وجلد على مقارعة ما سينشب قال (الطويل)[62] :

خَلِيلَيَّ مَهْلاً فَالزَّمَانُ كَمَا تَدْرِي وَلاَ بُدَّ مِنْ يُسْرٍ عَلى أَثَرِ الْعُسْرِ
فَمَهْمَا دَهَى صَحْوٌ فَلاَ بُدَّ مِنْ قَطْرٍ وَمَهْمَا دَجَا خَطْبٌ فَلاَ بُدَّ مِنْ فَجْرِ
وَأَلْطَافُ صُنْعِ اللّهِ رَائِعَةُ الْبِشْرِ
هُوَ الدَّهْرُ ذُو الوَجْهَيْنِ فِعْلُ مُنَافِقٍ وَأَحْكَامُهُ تَجْرِي بِكُرْهِ الْخَلاَئِقِ
فَصَبْرًا وَتَسْلِيمًا لِمَا شَاءَ خَالِقِي فَلاَ بُدَّ مِنْ ظَفْرٍ ونَصْرٍ مُوَافِقِ
عَلَى رَغْمِ مَنْ يَأْبَى الظُّهُورَ عَلَى الْكُفْرِ
عَلَى الْعَدْلِ يَجْرِي حُكْمُهُ وَقَضَاؤُهُ وَمِنَّا لَهُ التَّسْلِيمُ فِي مَا يَشَاؤُهُ
وَمَنْ كَانَ بِالْحَقِّ الْيَقِينِ اهْتِدَاؤُهُ رَأى النَّصْرَ خَفَّاقًا عَلَيْهِ لِوَاؤُهُ
وَسُحْقًا لِبَاغٍ حَادَ عَنْ عَلَمِ النَّصْرِ
سَتَنْخَرِمُ الأَعْمَارُ مِنْ فِئَةِ الْعِدَى وَنَاصِرُ دِينِ اللّهِ يَبْقَى مُؤَيَّدَا
فَاسْتَفْتِحُ الأَمْصَارَ مُلْكًا مُؤَيَّدَا تَلُوحُ مَعَالِينَا عَلَى أُفُقِ الْهُدَى
كَمَا لاَحَ فِي أَسْنَى مَطَالِعِهِ الْفَجْرُ

ج - معركة لورقة[63] :

وقعت هذه المعركة في عهد سلطان غرناطة محمد العاشر[64]. فقد أرسل في صفر 856/مارس 1452 جيشا من متطوعة غمارة بقيادة ابن عبد البر[65]، يتركب من ألفي فارس وست مائة راجل إلى منطقة متقدمة من الثغر بين أريولة ومرسية في شرقي دولة بني الأحمر داخل الأراضي القشتالية في بسيط يعرف ببسيط البورشنيس ALPORCHONES[66]. واعتبرت الحملة موفقة من الناحيتين السياسية والعسكرية. لكن أثناء الرجوع اعترض قائد عسكر مرسية بيدرو فخاردو : Pedro Fajardo الجيش الغرناطي وأوقع به هزيمة نكراء أصبح يعرف بعدها بفخاردو الباسل Fajardo el Bravo. وكان ذلك يوم الجمعة 25 صفر 17/856 مارس 1452.

وسكتت المصادر التاريخية العربية عن هذه الهزيمة، وردّد صداها القيسي من خلال تخميس له. فيه وتفجّع لما حلّ ببلاد الأندلس من ويل وثبور. وما هذه الهزيمة حسب الشاعر إلا حلقة من سلسلة نكبات ينزلها العدو بها كل يوم بقسوة وشراسة. ولم يبق من أمل في النجاة، والحالة تلك، إلا الأمل في عون الله ونصره. (الكامل)[67] :

لِمُصَابِ أَنْدَلُسٍ تَصُوبُ الأَدْمُعُ وَلِمَا جَرَى فِيهَا تَذُوبُ الأَضْلُعُ
فَلَهَا مَعَ الأَعْدَاءِ حَالٌ تُفْزِعُ تَقْضِي بِحَسْرَةِ مَنْ يَرَى أَوْ يَسْمَعُ
وَتَكَادُ مُهْجَتُهُ لَهُ تَتَصَدَّعُ

جَارَ الزَّمَانُ عَلَى جَمِيعِ جِهَاتِهَا فَأَبَاحَ حُرْمَةَ أَهْلِهَا لِعُدَاتِهَا
أَتَرَى الإِلَهَ يُقِيلُهَا عَثَرَاتِهَا وَيُزِيلُ مَا هِيَ فِيهِ مِنْ غَمَرَاتِهَا
بِدُنُوِّ نَصْرٍ بِالْفُتُوحِ يَشْفَعُ
فَلَقَدْ أَحَالَ عَدُوُّهَا أَحْوَالَهَا حِينَ الخُطُوبِ أَذَاقَهَا أَهْوَلَهَا
وَأَفَاضَ فِي أَقْطَارِهَا إِذْلاَلَهَا لَمَّا أَبَادَ بِلُورَقَهْ أَبْطَالَهَا
يَومَ العُرُوبَةِ(68) كَانَ فِيهَا المَصْرَعُ

ولا يحمل القيسي تبعة هذه الهزيمة على الجيش الغازي، بل بالعكس كان يرى في من سقط منهم في ميدان المعركة، أو من أسر بيد العدوّ شهداء أبطالا جديرين بكل رثاء وتنويه :

ذَهَبَ الْجَمِيعُ مُجَاهِدِينَ كَمَا ابْتَغَوْا وَحَوَوْا هُنَاكَ مِنَ الشَّهَادَةِ مَا حَوَوْا
مَاذَا نَكَوْا أَعْدَاءَهُمْ مَاذَا نَكَوْا وَلَرُبَّمَا مِنْهُمْ أَسَارَى مَا افْتَدَوْا
كَمْ أَمْرَضُوا مِنْ خَاطِرٍ كَمْ أَوْجَعُوا

وليس هذا الهلع في تخميس الشاعر من باب المبالغة الشعرية. فقد أوردت المصادر التاريخية النصرانية أن ابن عبد البرّ رجع ومعه فقط ثلاثمائة من جنده(69). فيكون بذلك قد سقط من المسلمين ألفان وثلاثمائة ما بين قتيل وأسير. وجاء « في مدوّنة جوان XI أنه استشهد في هذه الكائنة 14 قائدا وعدّدت منهم تسعة، وهم ابن عزيز قائد بسطة، وأخوه أبو القاسم قائد المحلّة غرناطة، والعبّاس بن عليّ بن حميد قائد بيرة، وقوّاد بلّش البيضاء، وبلّش الشقراء والمريّة وأرك وشوجر وقولر »(70). ولقد استعظم ابن الأحمر الخسارة ورأى في سلوك ابن عبد البرّ تقاعسا وجبنا فأمر بقطع رأسه حسب الرواية النصرانية(71).

وتبقى للمادة الشعرية قيمة أخرى نعتبرها على غاية كبيرة من الأهمية. ذلك أنها قد تمكننا من رواية ثانية قد تخالف ـ قليلا أو كثيرا ـ الرواية التاريخية. هذا إن لم تكن عكسَها تماما. ذلك أن الناظر في بعض القصائد أو المقطوعات أو النتف ـ وحتى البيت الوحيد ـ المنشورة هنا وهناك في كتب الأدب والتراجم قد يجد نفسه مضطرا إلى إعادة النظر في بعض ما جاء من روايات تاريخية. فالمادة الشعرية تلفت انتباهنا إلى أشياء جديدة لم تكن تخطر على بال. لا لشيء سوى أن المادة التاريخية قد حسمت الأمر فيها في اتجاه معيّن. ولنا أمثلة على ذلك :

أ ـ غزوة سردانية : لقد اتفقت جلّ المصادر التاريخية، إن لم نقل كلها، على تمجيد حملة مجاهد العامري على سردانية. والواقع أن هذه الحملة كانت فشلا عسكريا ذريعا ذهبت فيها العديد من المسلمين بين قتيل وأسير. وبالاعتماد على بيت شعري وحيد نفهم أن تباينا في وجهات النظر بين رئيس البحريين ومجاهد كان سببا أساسيا لهذه النهاية المأسوية.

فقد أنشد أبو خروب رئيس البحريين عندما كانت سفن الأسطول تسقط بيد النصارى مندّدا بمجاهد وكان يبكي لهول الموقف (طويل)[72] :

بَكَى دَوْبَلٌ[73] لاَ أَرْقَأَ اللَّهُ عَيْنَهُ ألاَ إِنَّمَا يَبْكِي مِنَ الذُّلِّ دَوْبَلُ

ب) بيعه شنجول بولاية العهد : كما نوهّت جلّ المصادر التاريخية بإسناد ولاية عهد هشام المؤيد إلى عبد الرحمان شنجول العامري. ودُبّجت القصائد لهذا الغرض لإضفاء مزيد من الشرعية على هذه البيعة، فقال صاعد البغدادي (طويل)[74] :

أَمَا وَالَّذِي أَعْطَى الخِلاَفَةَ رَبَّهَا أَغَرَّ مُعِمًّا في التَّبَابُعِ مُخْوِلاَ
لَقَدْ حَازَهَا مُرْخٍ عَلَيْهَا جَنَاحَهُ عُقَابٌ إِذَا مَا أَعْلَقَ الصَّيدُ جَلْجَلاَ

وقال أبو منصور زيادة الله الضبي (بسيط)[75] :

تَخَيَّرَ اللَّهُ وَالسُّلْطَانُ لِلأُمَمِ وَلِيَّ عَهْدٍ بَرَاهُ اللَّهُ مِنْ كَرَمِ

والحقيقة أن هناك معارضة قويّة لهذه البيعة المشؤومة وقع تهميشها، ولكن المادّة الشعريّة أبرزتها بشكل واضح جليّ. قال ابن أبي يزيد المصري (مجزوء البسيط)[76] :

إِنَّ ابنَ ذَكْوَانَ وَابْنَ بُرْدٍ[77] قَدْ نَاقَضَا الدِّينَ بَعْدَ عَهْدِ
وَعَانَدَا الحَقَّ إِذْ أَقَامَا حَفِيدَ شَنْجَهْ[78] وَلِيَّ عَهْدِ

ج) مقتل ابن الخطيب : وما من شكّ أن قراءة بعض القصائد قالها ابن الخطيب في التشفّي من خصومه بعد مصرعهم بطريقة شنيعة جدا، يمكن أن تخفف نسبيا الحكم القاسي الذي نجده في كتب التاريخ على من تسبّبوا في مقتله وهو سجين، فنفس شاعر غرناطة القدير ووزيرها الخطير لم تكن لتخلو من عقد ومركّبات كانت من بين الأسباب التي أدّت إلى نهايته المأسوية، فقد قال بعد مقتل السلطان إسماعيل وأخيه قيس متشفيا (وافر)[79] :

بِإِسْمَاعِيلَ ثُمَّ بِأَخِيهِ قَيْسٍ تَأَذَّنَ لَيْلُ هَمِّي بِانْبِلاَجِ
دَمُ الأَخَوَيْنِ دَاوَى جُرْحَ قَلْبِي وَعَالَجَنِي وَحَسْبُكَ مِنْ عِلاَجِي[80]

د) حدبة المنصورين أبي عامر : وفي هذا الاتجاه ألا يمكن أن نفسّر قسوة المنصور على بعض أفراد عائلته وصلابته في تعامله مع الرّعيّة وشدّته على النصارى في حملاته العسكرية بمركّب نقص خلقي لا نجده في المصادر التاريخية وأبرزه أحد الشعراء الناقصين عليه وهو إبراهيم بن إدريس قائلا (كامل)[81] :

أَيَكُونُ حَيًّا مِنْ أُمَيَّةَ وَاحِدٌ وَيَسُوسُ ضَخْمَ الْمُلْكِ هَذَا الأَحْدَبُ
تَمْشِي عَسَاكِرُهُمْ حَوَالَيْ هَوْدَجٍ أَعْوَادُهُ فِيهِنَّ قِرْدُ أَشْهَبُ
غَابَتْ أُسُودٌ مِنْكُمُ عَنْ غَابِهَا فَلِذَلِكَ حَازَ المُلْكَ هَذَا الثَّعْلَبُ

إن هذا المثال الأخير بقدر ما يفتح المجال لمقارنات وتأويلات، يُحمّل المعتمد على الشعر للتأريخ مسؤولية كبيرة. فالانسياق وراء التأويل المفرط قد يؤدي هو الآخر إلى عكس ما نرمي إليه من بلوغ الحقيقة التاريخية.

إن المادة الشعرية سلاح ذو حدّين. فهي تمكننا من الجديد الغريب عندما نستكنه أمرها، لكنّها قابلة لأن توقعنا في أشد الأحكام بعدا عن الحقيقة التاريخية. فالشّاعر مهما كانت موضوعيته في رسمه الحدث التاريخية يبقى وصفه ذاتيا بالدرجة الأولى. وتزداد خطورته إذا كان شعره شعرا رسميا متصلا بسلطة معيّنة لها إيديولوجيتها وسياستها. وليس غريبا أن يقلب هذا الشاعر الحقيقة التاريخية رأسا على عقب والأمثلة موجودة في الشعر الأندلسي : فهذا الخليفة الموحّدي يصبح ـ وخصاله باعتباره رجل دولة محنّك لا يمكن أن تنكر ـ في شعر ابن الأبّار المنحاز إلى دولة بني حفص موسوما بأبشع النّعوت والأوصاف خَلْقا وخُلُقا(82). والإتاوة التي كان ملوك الطوائف يقدمونها إلى ألفونسو السّادس ضعفا وخنوعا يجد لها الشاعر المدّاح تبريرا يستفز بها كلّ قارىء بطرائه المملّ ومدحه المزيف(83).

وهكذا نرى أن المادة الشعرية رغم ما توفّره لنا من جزئيات وما تقدّمه من تدقيقات وما تسدّه من ثغرات وما تفتحه أمامنا من تأويلات معقولة ومبرّرة تبقى سلاحا يجب أن نعرف كيف نستعمله لسبب بسيط هو أن الشعر العربي بصفة عامة، والشعر الأندلسي جزء منه، هو شعر رسمي وإمكانية الانحياز ـ عند ذكر الأحداث ـ إلى هذا الجانب أو ذاك وارد ومتوقّع لا محالة.

الهوامش

(1) أنظر قائمة دواوين الشعر الأندلسي المطبوعة في مقالنا حول « القيمة الوثائقية في ديوان ابن الأبار » في مجلة دراسات أندلسية عدد 2 جوان 1988، ص 32 وما بعدها.

(2) آخر ما ظهر : ديوان ابن فركون ق 15/9 تحقيق الأستاذ محمد ابن شريفة طبعة المغرب 1987.
وديوان عبد الكريم القيسي تحقيق د. جمعة شيخة، و د. محمد الهادي الطرابلسي، طبعة تونس 1988.
ومظهر النور لابن فركون إعداد الأستاذ محمد ابن شريفة ط. المغرب 1991.

(3) إحسان عبّاس : تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص 97.

(4) ابن حيّان : المقتبس، ص 58.

(5) يقصد العجم والمولّدين احتقارا.

(6) ابن حيّان : المقتبس، ص 59.

(7) إحسان عبّاس : تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص 97.

(8) المقصود العرب.

(9) ابن حيّان، ص 66.

(10) المصدر السابق.

(11) المصدر السابق.

(12) المصدر السابق.

(13) أبو حفص بن برد الأصفر صاحب نظم ونثر اتّصل ببلاط المريّة أولا ثم استقرّ بدانية في بلاط مجاهد. ذكر الحميدي أنه رآه بالمريّة بعد 1048/440 (ابن سعيد : المغرب : 86/1).

(14) أبو الوليد اسماعيل بن عامر الحميري، (ت حوالي 1048/440) : البديع في وصف الربيع، تحقيق هنري بيريس، الجزائر، 1940، ص 5-54.

(15) المصدر السابق.

(16) المصدر السابق.

(17) المصدر السابق.

(18) أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميري، (ت حوالي 1048/440) : البديع في وصف الربيع، تحقيق هنري بيريس، الجزائر، 1940، ص 5-54.

(19) المصدر السابق، ص 9-58.

(20) المصدر السابق، ص 59.

(21) المصدر السابق، ص 6-65.

(22) المقري : نفح الطيب، 132/4.

(23) المقري : نفح الطيب، 132/4.

(24) المقري : نفح الطيب، 1/3 ـ 190.

(25) أبو بكر يحيى بن سهل : هو حسب ابن سعيد هجاء المغرب ويشبهه بابن الرومي وبالحطيئة (ابن سعيد : المغرب : 268/2).

(26) ابن سعيد : المغرب 268/2.

(27) أبو عبد الله بن أبي الخصال (1073/465 ـ 1146/540) شاعر وأديب كتب لعلّي بن يوسف بن تاشفين. واكتفى بإعفائه إثر رسالة التشفّي التي كتبها في ذمّ جند بلنسيّة من المرابطين. استشهد في فتنة المصامدة بقرطبة (الزركلي : الأعلام 316/7).

(28) حسين مؤنس : نصوص سياسية نشرها بمجلة المعهد المصري بمدريد، مجلّد 1955/3، ص 117.
(29) أصلح هذا الفصل عبد الله كنون في مقال له حول رسالة ابن أبي الخصال في ذمّ المرابطين بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلد 1960/35، ص 576. بينما نجد عند حسين مؤنس في المرجع السابق وبعض المراجع الأخرى (يريعكم).
(30) هذا البيت لم يعتبره عبد الله كنون في بحثه السابق جزءا من المقطوعة الشعرية وأورده في قالب نثري.
(31) ابن سعيد : المغرب : 267/2.
(32) هذا يتفق مع ما قاله ابن عبدون في رسالته حول الحسبة والقضاء بالأندلس (انظر لفي بروفنصال : رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، ص 28).
(33) المقري : نفح الطيب، 205/3.
(34) ابن إدريس : زاد المسافر، 120.
(35) الزراجون : اسم أطلق على المرابطين تشبيها لهم بطائر يقال له الزرجان : وهو طائر أسود البطن أبيض الرّيش لأن المرابطين في نظر أعدائهم بيض الثياب سود القلوب : (عبد الله عنان : دولة الأندلس : عصر المرابطين، ص 185).
(36) ينسب هذان البيتان للسّميسر الشاعر.
(37) ديوان التطيلي، ص 2-31.
(38) نفس المصدر.
(39) ديوان القيسي، ص 198.
(40) ابن شريفة : البسطي، ص 217.
(41) نفح الطيب : ج 4، ص 5-484.
(42) ابن سعيد : المغرب 22/2.
(43) ديوان ابن درّاج، ص 127.
(44) المصدر السابق، ص 128.
(45) ديوان ابن درّاج، ص 134.
(46) المقصود أن الذكر في هذا العقد من فرنجة أي برشلونة والأنثى من قشتالة.
(47) ديوان التطيلي، ص 204.
(48) المقرّي : نفح الطيب، 531/4.
(49) المقرّي : أزهار الرياض 105/1.
(50) المصدر السابق.
(51) المقرّي : النفح : 355/1.
(52) المقرّي : أزهار الرّياض، 105/1.
(53) المصدر السابق.
(54) المقرّي : أزهار : 105/1.
(55) المقرّي : أزهار الرياض : 105/1.
(56) المقرّي : أزهار : 105/1.
(57) قبرة : Cabra تقع في الجنوب الشرقي لقرطبة.
(58) انتقيرة : إحدى مدن الأندلس القديمة، تبعد عن مالقة حوالي 60 كلم. وهي عبارة عن مجموعة من الحصون بين مالقة وغرناطة (ابن الخطيب : معيار الاختيارر، ص 127 تعليق 223).
(59) ديوان يوسف الثالث، ص 122.
(60) الإفنت : L'Infant Ferdinant حكم قشتالة باعتباره وصيّا على ابن أخيه الطفل خوان الثاني.

(61) وقعت معركة طريف بين ملك قشتالة وحليفة ملك البرتغال وبين أبي الحسن المريني وحليفه ابن الأحمر، وانتهت بهزيمة المسلمين هزيمة نكراء في 7 جمادى الأولى 30/741 أكتوبر 1340 (ابن الخطيب : رقم الحلل، ص 93).
(62) ديوان يوسف الثالث، ص 70-71.
(63) لورقة Lorca تقع شرقي مملكة بني نصر تابعة لأرض قشتالة، ما بين غرناطة ومرسية، لها حصن من أمنع حصون بلاد الأندلس يقع على ارتفاع 350 م. سقطت لورقة مع مرسية سنة 1266/665 (دائرة المعارف الاسلامية ط 33/3/1 كتب المقال لـ بروفنصال).
(64) ذكرت ذلك آريي في أطروحتها ص 140. لكن حسب الجدول الذي وضعته في آخر كتابها يجب أن يكون باعث الحملة محمد XI الذي حكم من 1451/855 إلى 1452/856.
(65) ذكرت آريي في أطروحتها ص 140 أن اسمه عبد البرّ.
(66) ولهذا تعرف المعركة في المصادر الاسبانية بواقعة البورشونيس.
(67) ديوان القيسي، ص 68.
(68) يوم العروبة : يوم الجمعة. ويكون الشاعر بهذا الضبط قد مكّننا من أن نرجّح رواية ج. طوريس فونتس في كتابه : دون بيدرو ص 3-52، فقد ذكر أن المعركة وقعت يوم 25 صفر/17 مارس وهو يوافق يوم جمعة بخلاف ما ذكرته آريي في أطروحتها ص 140 وهو يوم 15 صفر/7 مارس وهذا يوافق يوم الثلاثاء وإلى اليوم يحتفل أهل مرسية بهذا الانتصار. ويوافق 17 مارس يوم القدّيس باتريس الذي اعتبر منذ ذلك التاريخ حامي مدينة مرسية.
(69) شكيب أرسلان : الحلل السندسية : 455/3 (اعتمد المؤلف على مصادر إسبانية).
(70) محمد بن شريفة : البسطي آخر شعراء الأندلس، ص 171.
(71) شكيب أرسلان : الحلل السندسية 455/3.
(72) الجذوة 358.
(73) الدَّوْبَلُ : هو الحمار الصغير لا يكبر، أو الذكر من الخنازير.
(74) أعمال الاعلام : 94.
(75) أعمال الاعلام : 95.
(76) الحلّة السيراء : 279/1.
(77) ابن ذكوان وابن برد القاضيان اللذان دبّجا ولاية العهد لشنجول.
(78) يقصد عبد الرحمان، شنجول.
(79) ديوان ابن الخطيب : 359.
(80) وهجا الوزير ابن أبي الفتوح بعد إغراقه في البحر مع أبنائه ونعتهم بالجراء (المقري : النفح : 140/6-141).
(81) نيكل : مختارات من الشعر الأندلسي، ص 45.
(82) القيمة الوثائقية في ديوان ابن الأبّار : دراسات أندلسية، عدد 2، ص 50.
(83) جمعة شيخة : الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي : 92/1.